

لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ

لِفَظِيلَةِ الشَّيْخِ
مُحَمَّدٍ سَعِيدٍ رَسَّالَانِ

[شريط مفرغ] ~~هـ~~

تونس في: 2011-02-16

إذا كان هناك أي ملاحظة أو خطأ في التفريغ أرجو منكم فضلاً لا أمراً أن تراسلوني على هذا العنوان:

minbaretawheedwasunna0@gmail.com

كما أرجو أن لا يتوقف هذا التفريغ عندكم بعد قراءته بل أن تقوموا بإرساله إلى إخوانكم لعل الله ينفعني به وإياكم بارك الله فيكم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الْخُطْبَةُ الْأُولَى

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾¹

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾²

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾³

أَمَّا بَعْدُ

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ

فَإِنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَكَرَّمَهُ وَسَخَّرَ لَهُ مَا خَلَقَهُ، وَمَضَى بِهِ مُهِمَّةَ عِمَارَةِ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي اسْتَخْلَفَهُ فِيهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁴ وَهَذَا الْخَلِيفَةُ هُوَ آدَمُ وَبَنُو آدَمَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ

¹ [آل عمران: 102].

² [النساء: 1].

³ [الأحزاب: 70-71].

⁴ [البقرة: 30].

مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا⁵ أَي جَعَلَكُمْ فِيهَا لِتَعْمُرُوهَا، وَمَكَّنَكُمْ بِمَا آتَاكُمْ مِنْ عِمَارَتِهَا، وَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾⁶ وَهَذَا التَّسْخِيرُ يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ كُلِّ مَظَاهِيرِ التَّكْرِيمِ لِهَذَا الْإِنْسَانِ الَّذِي اسْتَخْلَفَهُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي الْأَرْضِ لِعِمَارَتِهَا. وَعِمَارَتُهَا بِعِبَادَةِ رَبِّنا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِيهَا، وَبِالْقِيَامِ عَلَى مَا يُصْلِحُهَا. وَقَدْ زَوَّدَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- هَذَا الْإِنْسَانَ بِكُلِّ وَسَائِلِ الاسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ، وَسَلَّحَهُ بِكُلِّ أَدَوَاتِ الْمَعْرِفَةِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى قِيَادَةِ دِفَّةِ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَإِدَارَةِ دَوَالِبِ الْعَمَلِ فِيهَا، وَلِكِي لَا يَضِلَّ وَلَا يَشْقَى بَعَثَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إِلَيْهِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ فِيهَا الشَّرَائِعَ وَالْحَقَّ الْمُبِينِ، وَعَلَّمَهُمْ أُصُولَ التَّعَايُشِ وَمَبَادِئَ التَّعَامُلِ، وَلَفَّتْ أَنْظَارَهُمْ إِلَى ضَرُورَةِ الْإِلْتِزَامِ بِأَدَابِ الشَّرَائِعِ وَالْأَدْيَانِ، وَلَمْ يُبَحِّ لِأَحَدٍ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ طَائِعًا مُخْتَارًا، وَأَشْعَرَهُمْ عِظَمَ الْمَسْئُولِيَّةِ عَنِ الْإِحْلَالِ وَالتَّقْصِيرِ، فَقَالَ رَبُّنا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾⁷ ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ إِنَّمَا هُوَ مُلْكٌ لِلَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، لَمْ يَخْلُقْهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَبَثًا، وَلَمْ يَسْتَخْلِفْهُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَنْ يَتْرُكَهُ سُدىً، وَلَمْ يَجْعَلْهُ حُرًّا فِي تَصَرُّفَاتِهِ يَتَصَرَّفُ فِي نَفْسِهِ كَيْفَمَا يَشَاءُ، بَلْ أَوْجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَحْمِيَ نَفْسَهُ وَأَنْ يَصُونَهَا مِنْ كُلِّ أَوْجِهٍ الْهَلَاكِ، وَأَنْ يَصْرِفَ عَنْهَا كُلَّ مَظَاهِيرِ الْإِضْرَارِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾⁸ وَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾⁹.

⁵ [هود : 61]⁶ [لقمان : 20]⁷ [التوبة : 105]⁸ [النساء : 29]⁹ [البقرة : 195]

حَرَّمَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَى الْإِنْسَانِ الْخَبَائِثَ الَّتِي تُؤْذِيهِ، وَأَبَاحَ لَهُ كُلَّ مَا يَنْفَعُهُ وَيَحْمِيهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾¹⁰ وَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾¹¹ وَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾¹² وَأَمَرَ اللَّهُ -جَلَّ وَعَلَا- هَذَا الْإِنْسَانَ أَنْ يَأْكُلَ وَأَنْ يَشْرَبَ وَأَنْ يَنْتَفِعَ وَأَنْ يَزِدَّ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ لَهُ مِنْ مَظَاهِيرِ الْمُتَعِ وَأَنْوَاعِ الْمَعَارِفِ مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا مَخِيلَةٍ، قَالَ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾¹³ وَقَالَ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾¹⁴، فَأَبَاحَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- الطَّيِّبَاتِ، وَحَرَّمَ الْخَبَائِثَ، وَأَمَرَ بِحِفْظِ النَّفْسِ أَنْ يُعْتَدَى عَلَيْهَا أَوْ أَنْ يُعْتَدَى عَلَى الْجَسَدِ الْإِنْسَانِيِّ فِي غُضُو مِنْهُ، وَنَهَى اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عَنِ الْخَمْرِ وَيَشْمَلُ ذَلِكَ الْمُسْكِرَاتِ كَمَا أَنَّهُ يَشْمَلُ الْمُخَدِّرَاتِ، لِأَنَّ ذَلِكَ يُغَيِّبُ الْعَقْلَ وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِحِفْظِ الْعَقْلِ وَهُوَ مِنَ الضَّرُورَاتِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لِلْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَعِيشَ بِسِوَاهَا.

أَمَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِحِفْظِ النَّفْسِ وَبِحِفْظِ الْعَقْلِ وَبِحِفْظِ الْمَالِ وَبِحِفْظِ الْعِرْضِ، وَأَمَرَ بِحِفْظِ الدِّينِ وَبِهِ يُحْفَظُ هَذَا كُلُّهُ. وَالْإِصْلَاحُ لِلْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا بِالْحِفَاطِ عَلَى هَذِهِ الضَّرُورَاتِ، وَمَا وَرَاءَهَا إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَاجِيَّاتِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ التَّحْسِينِيَّاتِ. وَجَعَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الدِّيَّاتِ قَائِمَةً مَنْصُوصًا عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِهِ -جَلَّ وَعَلَا- فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِقَتْلِ النَّفْسِ، وَمَا دُونَ ذَلِكَ مِمَّا نُصِّ فِيهِ عَلَى الدِّيَّةِ، حِفْظًا لِلنَّفْسِ وَحِفْظًا لِلْجَسَدِ الْبَشَرِيِّ أَنْ يُمْتَهَنَ أَوْ أَنْ يُعْتَدَى عَلَيْهِ.

أَمَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ، وَمَنَعَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنَ الْخَبَائِثِ وَنَهَى عَنْهَا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَجَعَلَ لَنَا دِينَنَا الْأَغَرَ الْوَسَائِلَ الَّتِي تُفْضِي إِلَى الشَّرِّ مُحَرَّمَةً كَهُوَ، فَكُلُّ مَا أَفْضَى إِلَى شَرٍّ وَحَرَامٍ فَهُوَ شَرٌّ وَحَرَامٌ، وَكُلُّ مَا أَفْضَى إِلَى خَيْرٍ وَبِرٍّ فَهُوَ خَيْرٌ وَبِرٌّ، فَجَعَلَ

¹⁰ [المائدة : 4]¹¹ [الأعراف : 157]¹² [المائدة : 3]¹³ [الأعراف : 31]¹⁴ [الأعراف : 32]

لِلْوَ سَائِلِ مَا لِلْمَقَاصِدِ مِنَ الْأَحْكَامِ، فَنَهَى الدِّينُ الْحَنِيفَ عَنْ كُلِّ الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى الْإِضْرَارِ بِالْإِنْسَانِ لِكَيْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَقُومَ الْإِنْسَانُ بِوُظُفَتِهِ الَّتِي لِأَجْلِهَا خَلَقَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي الْأَرْضِ، لِأَنَّ إِعْمَارَ هَذِهِ الْأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ بِتَوْحِيدِ الرَّبِّ -جَلَّ وَعَلَا-، وَبِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَبِإِقَامَةِ الدِّينِ، لَا تُعْمَرُ الْأَرْضُ إِلَّا بِذَلِكَ، لِأَنَّ النُّورَ كُلَّهُ وَالْخَيْرَ كُلَّهُ إِنَّمَا هُوَ مُسْتَمَدٌّ مِنْ شَمْسِ الرِّسَالَةِ، فَمَهْمَا سَطَعَتْ أُنُورُ شَمْسِ الرِّسَالَةِ فِي مَكَانٍ عَمَّهُ الْخَيْرُ وَالْفَلَاحُ وَالْبَرَكَهَةُ وَالنَّجَاحُ، وَمَهْمَا غَابَتْ شَمْسُ الرِّسَالَةِ عَنْ مَكَانٍ فَهُوَ ظُلُمٌ كُلُّهُ وَجَوْرٌ كُلُّهُ وَهُوَ هَلَكَةٌ مُفْضِيَةٌ إِلَى هَلَكَةٍ. فَأَمَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِكُلِّ مَا يُعِينُ الْإِنْسَانَ عَلَى أَدَاءِ وَظِيفَتِهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْإِنْسَانَ مُسْتَخْلَفًا فِي الْأَرْضِ لِكَيْ يَقُومَ عَلَى عِمَارَتِهَا بِدِينِ رَبِّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، وَحِيَاظَةِ شَرْعِهِ، وَعِبَادَةِ مَوْلَاهُ الَّذِي أَنْشَأَهُ وَبَرَّاهُ وَأَمَدَّهُ بِمَا أَمَدَّهُ بِهِ مِنَ الْوَانِ التَّسْخِيرِ فِي هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَاقِعًا عَبَثًا، وَلَا كَانَتْ سُدَى، وَإِنَّمَا هُوَ لِعَايَةِ مَعْلُومَةٍ وَحِكْمَةٍ بَاهِرَةٍ مِنْ لَدُنْ رَبِّنَا الْحَكِيمِ الْقَدِيرِ.

نَهَى الدِّينُ الْعَظِيمُ عَنْ كُلِّ شَرٍّ وَأَمَرَ بِكُلِّ خَيْرٍ وَبَرٍّ، وَبَيَّنَ لَنَا رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ أَنَّ نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أُرْسِلَ إِلَيْنَا بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَجَاءَ بِالْإِيمَانِ وَبِالْعَمَلِ، فَجَاءَ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَمَهْمَا سَارَ الْمَرْءُ وَرَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَحْكَمَتْ أَوَاصِرُ الشَّرِّ بَعِيدًا عَنْ نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ حَتَّى يَطَّأَهَا بِقَدَمَيْهِ، وَاسْتَحْكَمَتْ أَوَاصِرُ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ فِي نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ حَتَّى اسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهِ. حَتَّى إِنَّكَ تَرَى كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ لَا يُحْسِنُونَ كَثِيرًا مِنْ ضُرُوبِ الْحَيَاةِ، وَلَا يَفْقَهُونَ كَثِيرًا مِنْ مُوَاضِعَاتِ الْخَلْقِ لِأَنَّهُمْ يَقْبَلُونَ عَلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ تَعَلُّمًا وَعَمَلًا وَعِبَادَةً وَدَعْوَةً وَإِقَامَةً لِدِينِ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، لِدِينِ اللَّهِ الَّذِي يَنْفِي الْخَبَائِثَ، وَيُحِقُّ الْحَقَّ، وَيُعْلِي رَايَةَ الْعَدْلِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَّ أَنَّهُ لَا مُحَاذَاةَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَقَدْ نَادَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَمَرَهُ رَبُّهُ -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾¹⁵ نَادَى بَنِي كَعْبٍ، ابْنُ لُؤْيٍ، وَنَادَى بَنِي هَاشِمٍ ثُمَّ شَرَعَ فِي نِدَاءِ الْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، فَنَادَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْعَبَّاسَ وَقَالَ: "اعْمَلْ فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا" وَنَادَى صَفِيَّةَ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَأَمَرَهَا بِالْعَمَلِ وَأَخْبَرَهَا أَنَّهُ

لَا يُعْنِي عَنْهَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، ثُمَّ وَصَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى غَايَةِ الْقُرْبَى بِالْقُرْبِ وَالْقَرَابَةِ فَقَالَ: " يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِّينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِي فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا "، فَلَا وَاصِرُ كُلِّهَا عِنْدَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْأَنْسَابُ مَقْطُوعَةٌ إِلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ وَمَعَ اللَّهِ وَبِاللَّهِ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ. وَقَدْ بَيَّنَّ لَنَا رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَنَّ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ لَمْ يُعْنِي عَنْ أَبِيهِ شَيْئًا، وَبَيَّنَّ لَنَا رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يُعْنِي عَنْ ابْنِهِ شَيْئًا وَلَا عَنْ امْرَأَتِهِ، وَكَذَا لُوطٌ لَمْ يُعْنِي عَنْ امْرَأَتِهِ شَيْئًا، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ فِي عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ -وَهَذِهِ حِكْمَةٌ فِي حِكْمِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْبَالِغَةِ- فَيَشْفَعَ فِيهِ لَا لِخُرُوجِهِ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا لِيُخَفِّفَ عَنْهُ الْعَذَابَ وَلَهُ جَمْرَتَانِ مِنَ النَّارِ بِأَخْمَصَيْ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَعْلِي مِنْهُ بِنَعْلَيْهِ مِنَ النَّارِ دِمَاغَهُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. فَدَيْنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْعَدْلُ كُلُّهُ، وَهُوَ الْحَقُّ كُلُّهُ، وَهُوَ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَهُوَ النُّورُ كُلُّهُ، وَهُوَ الْهَدَايَةُ كُلُّهَا، وَهُوَ الْبِرُّ كُلُّهُ، وَمَا عَدَاهُ ظُلْمَةٌ وَظُلْمٌ وَجَوْرٌ وَفِسْقٌ وَطُغْيَانٌ وَبُهْتَانٌ، وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَمَرَنَا أَنْ نَحَافِظَ عَلَى هَذَا الْكَيَانَ الْإِنْسَانِي، لِأَنَّا لَا يُمَكِّنُ أَنْ نُؤَدِّيَ الْوُظَيْفَةَ فِي الْحَيَاةِ بِالْأَحْسَادِ الْمُتَهَالِكَةِ الَّتِي يَحْمِلُ عَلَيْهَا الْمَرْءُ الْحَمْلَ الْأَعْمَى مِنْ غَيْرِ مَا بَصِيرَةٍ تُلَوِّحُ فِي أَفْقِ الرُّوحِ، فَهَنَانَا الشَّرُّعُ الْأَغْرَّ أَنْ نَدْعُوَ عَلَى أَنْفُسِنَا، وَنَهَانَا الشَّرُّعُ الْأَغْرَّ أَنْ يَتَمَنَّى الْوَاحِدُ مِنَ الْمَوْتِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُزْهِقَ رُوحَهُ بِيَدِهِ، فَإِذَا كَانَ الدِّينُ الْأَغْرَّ وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ وَأَوْحَى إِلَيْهِ بِهِ يَأْمُرُ النَّاسَ أَنْ لَا يَدْعُوَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَأَنْ لَا يَدْعُوَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَنْ لَا يَتَمَنَّى أَحَدُهُمُ الْمَوْتَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: " لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ "، فَإِذَا دَعَوْتَ عَلَى نَفْسِكَ فَقَدْ دَعَوْتَ بِلِسَانٍ مَنْ لَمْ يَعِصِ اللَّهَ قَطَّ وَهُوَ الْمَلَكُ الَّذِي يُؤْمِنُ عَلَى دُعَائِكَ، وَالتَّائِمِينَ دُعَاءَ كَمَا بَيَّنَّ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ فِي شَأْنِ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾¹⁶ مَعَ أَنَّ مُوسَى كَانَ دَاعِيًا وَكَانَ هَارُونُ مُؤْمِنًا، فَنَزَلَ الْمُؤْمِنَ عَلَى الدَّعَاءِ مَنَزَلَةَ الدَّاعِي سَوَاءً بِسَوَاءٍ، فَإِذَا دَعَوْتَ عَلَى نَفْسِكَ فَقَدْ دَعَوْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِلِسَانِ الْمَلَكِ، وَالْمَلَكُ لَمْ يَعِصِ اللَّهَ قَطَّ، فَمَا أُخْرَى هَذَا أَنْ يُسْتَجَابَ، " لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ "

هَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، وَعِنْدَهُ وَعِنْدَ أَبِي دَاوُدَ وَعِنْدَ أَبِي دَاوُدَ أَيْضًا بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ: "لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلَى خَدَمِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ لَا تُؤَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً نِيلَ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ"، فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ نَهَى عَنْ هَذِهِ الذَّرِيعَةِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الشَّرِّ فَكَيْفَ بِمُؤَافَعَتِهِ؟ فَكَيْفَ بِالْوُلُوغِ فِيهِ وَالسَّيْرِ فِي أَوْحَالِهِ؟

إِنَّ هَذَا الدِّينَ الْأَغْرَّ إِنَّمَا بَيَّنَّ لَنَا فِيهِ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي الْوَحْيَيْنِ، فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لِنُعَمَّنَا، وَلَا لِنَكُونَ الْحَيَاةَ عَلَى حَسَبِ أَهْوَاءِنَا وَمُرَادَاتِ أَنْفُسِنَا، بَلْ خَلَقَنَا اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي الْحَيَاةِ لِلْمَحَنَةِ، وَجَعَلَنَا اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي هَذَا الْوُجُودِ لِلِابْتِلَاءِ وَالْمَشَقَّةِ، فَإِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. فَعَبَثًا يُحَاوِلُ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ فِي الْحَيَاةِ عَلَى جَادَةِ السَّعَادَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ لَا عَلَى جَادَةِ السَّعَادَةِ الْآخِرَوِيَّةِ، فَهَذِهِ جَعَلَهَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ غَايَةً وَأَرْشَدَ النَّاسَ إِلَى سُلُوكِ سَبِيلِهَا لِتَحْصِيلِهَا بِمَرْدُودِهَا فِي الْحَيَاةِ وَبِمَالَهَا فِي الْآخِرَةِ، السَّعَادَةُ الْآخِرَوِيَّةِ بِالْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ، وَالرِّضَا بِعَطَائِهِ، وَالْقَنَاعَةَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي الْحَيَاةِ لِلْعَبْدِ، مَعَ النَّظَرِ إِلَى حِكْمَتِهِ -جَلَّ وَعَلَا- لِكَيْ يَرْضَى الْعَبْدُ عَمَّا قَسَمَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَهُ، لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ ذَلِكَ الْمَقْسُومَ إِنَّمَا قُسِمَ لَهُ عَلَى مُقْتَضَى الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، وَأَنَّ الَّذِي يُصَرِّفُ أَمْرَهُ هُوَ أَرْحَمُ بِهِ مِنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ وَمِنْ نَفْسِهِ الَّتِي بَيْنَ جَنَبَيْهِ، وَأَنَّ اللَّهَ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ إِلَّا لِيُخْتَبَرَنَا لَمَّا كَلَّفْنَا بِعِبَادَتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي حَدَّهُ وَخَطَّ لَنَا مَعَالِمَهُ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الشَّرْعِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، إِذَا عَلِمَ الْإِنْسَانُ ذَلِكَ سَلَّمَ لِأَمْرِ رَبِّهِ، وَعَلِمَ أَنَّ مَا مُنِعَهُ إِنَّمَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِمَّا أُعْطِيَهُ، وَأَنَّ الْجِرْمَانَ قَدْ يَكُونُ عَيْنَ الْعَطَاءِ، وَأَنَّ الْعَطَاءَ الظَّاهِرَ قَدْ يَكُونُ عَيْنَ الْمَنْعِ وَالْجِرْمَانَ، فَإِذَا رَاعَى الْمَرْءُ مَا يَتَعَلَّقُ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَهُ فِي الْحَيَاةِ مِنْ وُجُوهِ اللَّذَّةِ وَتَصَارِيفِ الْمَتَاعِ، وَمَا جَعَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَهُ مَقْسُومًا مِنْ صُنُوفِ الرِّزْقِ، عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُحْرَمَ شَيْئًا هُوَ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ شَيْئًا، وَإِنَّمَا هُوَ مُحْضٌ تَفَضَّلَ مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمِنَّةً، وَأَنَّ اللَّهَ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ، وَأَنَّ الْعَطَاءَ مِنْ قَبْلِهِ، وَأَنَّ الْجِرْمَانَ بِأَمْرِهِ وَقَدَرِهِ، فَإِذَا سَلَّمَ لِرَبِّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- اسْتَقَامَتِ أُمُورُهُ. وَإِنَّمَا هُوَ رَاكِبٌ اسْتَظَلَّ بِظِلِّ شَجَرَةٍ سُرْعَانَ مَا يَقُومُ فَاتَتْهَا، سُرْعَانَ مَا يَقُومُ فَاتَتْهَا إِيَّاهَا رَاحِلًا عَنْهَا. وَهَلْ رَأَيْتَ أَحَدًا يَبْنِي بَيْتًا فِي ظِلِّ

شَجَرَةٍ لِكَيْ يَنْعَمَ بِهَذَا الظِّلِّ أَبَدًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُسَافِرٌ وَابْنُ سَبِيلٍ؟ **"لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُو بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ إِنَّهُ إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنُ عُمُرَهُ إِلَّا خَيْرًا"** وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، أَنْ يُخَلِّفَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَتَعْبُدَ اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - وَأَنْ تَسْجُدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي وَقْتٍ خَلَّفَكَ فِيهِ وَإِنْ وَجَدْتَ مِنَ النَّصَبِ وَالْمَشَقَّةِ مَا وَجَدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ إِذْ أَبَقَاكَ لِعِبَادَتِهِ، وَوَقَّفَكَ لِعِبَادَتِهِ وَأَعَانَكَ وَأَقْدَرَكَ عَلَى الْإِثْيَانِ بِهَا، وَنَحَّى عَنْكَ سُبُلَ الْقَطْعِ لَهَا، وَلَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُنْذُ خَلَقَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يُسْحَبُ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى أَنْ يُقِيمَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - السَّاعَةَ لَعُدَّ ذَلِكَ قَلِيلًا فِي جَنْبِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِهِ عَلَيْهِ. وَلِذَلِكَ أَمَرَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عِنْدَ حُلُولِ الْمَصَائِبِ - نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ - أَنْ نَقُولَ (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى "لِلَّهِ" هِيَ لَأَمُ الْمَلِكِ، لَأَمُ الْإِخْتِصَاصِ، فَنَحْنُ مَلِكُهُ، وَمَنْ حَكَمَ فِي مَالِهِ فَمَا ظَلَمَ، فَكَيْفَ إِذَا كُنَّا قَدْ سَلَّمْنَا بِذَلِكَ لِلْبَشَرِ وَنَحْنُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ لَا نُسَلِّمُ بِهِ لِرَبِّ الْبَشَرِ؟! مَالِكِ الْقَوَى وَالْقَدَرِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لِأَنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَنْ يُصِيبَنَا مِنْهُ إِلَّا الْخَيْرَ، فَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا يَتَأْتِي مِنْ قَدَرِهِ إِلَّا الْخَيْرُ، وَلَا يُقَدَّرُ إِلَّا خَيْرًا، حَتَّى مَا يُصِيبُ بِهِ الْعَبْدَ مِنَ الْمَقْدُورِ فِي الشَّرِّ وَالشَّرِّ فِي الْمَقْدُورِ فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَقْدُورِ لَا بِالْقَدَرِ، لِأَنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَا يَأْتِي مِنْهُ إِلَّا الْخَيْرُ، وَلَا يُقَدَّرُ إِلَّا الْخَيْرُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.

هَذَا الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانُ فِي صَحِيحَيْهِمَا: **"لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُو بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ إِنَّهُ إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمُرَهُ إِلَّا خَيْرًا"** وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ: **"لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ أَصَابِهِ فَإِنْ كَانَ لَأَبَدٌ فَاعِلًا فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي"** فَرَأَى الضَّعْفَ الْإِنْسَانِيَّ، وَالْجَزَعَ الَّذِي تُبْنَى عَلَيْهِ النَّفُوسُ، وَالطَّمَعُ الَّذِي تَشْرَبُ إِلَيْهِ الْأَعْنَاقُ، وَتَخْضَعُ لَهُ الرِّقَابُ وَتَذِلُ، فَرَأَى هَذَا كُلَّهُ، وَلَكِنَّهُ وَجَّهَ ذَلِكَ كُلَّهُ الْوَجْهَةَ الصَّحِيحَةَ الصَّائِبَةَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إِنْ كَانَ لَأَبَدٌ فَاعِلًا"** لِأَنَّ الْمَرْءَ رُبَّمَا فَارَتْ بِهِ مَرَاجِلُ نَفْسِهِ غَلِيَانًا بِحُنْقٍ وَغَضَبٍ، حَتَّى يَعِشَى فَيَعْمَى عَنْ اسْتِبْصَارِ سَبِيلِ الرَّشَادِ، وَحِينَئِذٍ يَنْطَلِقُ دَاعِيًا عَلَى نَفْسِهِ مُتَمَنِّيًا الْمَوْتَ، فَضَبْطَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ الْحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ: **"إِنْ كَانَ لَأَبَدٌ فَاعِلًا فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي"** وَهُوَ تَفْوِيضٌ لِأَمْرِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَقَدَرِهِ، وَهَذَا الْأَمْرُ قَدْ قَسَمَهُ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فَلَا

يَسْتَعْجِلَنَّهُ أَحَدُ فَإِنَّهُ آتٍ فِي وَقْتِهِ الَّذِي قَدَرَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الثَّابِتِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي أُمَامَةَ وَغَيْرِهِ عِنْدَ أَبِي نُعَيْمٍ وَغَيْرِهِ: "إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ"، إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ جَبْرِيلُ جَاءَهُ بِهَذَا الْوَحْيِ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ، إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي -فِي نَفْسِي- وَالنَّفَثُ فَوْقَ النَّفْخِ وَدُونَ التَّغْلِ وَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِإِبْلَاغِهِ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ إِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَتَسْتَوْعِبَ أَجَلَهَا، فَهَاتَانِ فَضِيَّتَانِ مُحْسُومَتَانِ أَرْكَا كَمَا قَضَاهُمَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَقَدَرَهُمَا، لَا يَتَقَدَّمَانِ وَلَا يَتَأَخَّرَانِ وَلَا يَزِيدَانِ وَلَا يَقِلَّانِ؛ الْأَجَلُ وَالرِّزْقُ. "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ" وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ شَيْءٍ فَبِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ كَمَا قَالَ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾¹⁷ ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾¹⁸، فَمَهْمَا أَصَابَكَ مِنْ شَيْءٍ؛ بِضِيقٍ فِي رِزْقٍ، أَوْ هَمٍّ فِي نَفْسٍ، أَوْ كَرْبٍ فِي رُوحٍ، أَوْ تَعَثُّرٍ فِي طَرِيقِ حَيَاةٍ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ تَحْتَاجُ إِلَى التَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى الْإِقْبَالِ عَلَى جَنَابِ مَوْلَاكَ وَإِلَهِكَ، وَأَنْ تُرَاجِعَ نَفْسَكَ مِنْ أَيْنَ أُوتِيتَ، فَإِنَّهُ إِنْ تَسَلَّطَ عَلَيْكَ الْعَدُوُّ فَمَا بِقُدْرَتِهِ تَسَلَّطَ وَإِنَّمَا النَّصِيرُ تَخْلَى، إِذَا تَسَلَّطَ عَلَيْكَ الْعَدُوُّ فَمَا بِقُوَّتِهِ وَلَا بِقُدْرَتِهِ تَسَلَّطَ وَإِنَّمَا عَنْكَ النَّصِيرُ تَوَلَّى، فَارَاجِعْ نَفْسَكَ.

الْإِنْسَانُ فِي الْحَيَاةِ مُكَلَّفٌ، وَالتَّكْلِيفُ لَا يَخْلُو مِنْ مَشَقَّةٍ، لِأَنَّهُ فِعْلٌ مَا فِيهِ كَلْفَةٌ، وَالْإِنْسَانُ فِي الْحَيَاةِ مُبْتَلَى، وَالْإِنْسَانُ فِي الْحَيَاةِ مُحْتَبَرٌ، وَوَاجِبُهُ أَنْ يَقْبَلَ هَذَا الْإِبْتِلَاءَ وَالْإِحْتِبَارَ مَا دَامَ آتِيًا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَاجِبُهُ أَنْ يَعْتَقِدَ فِي ذَلِكَ الْإِحْتِبَارَ وَالْإِبْتِلَاءِ الْخَيْرَ، وَسَيُنْكَشِفُ عَنْ مُنْتَهَى الْحِكْمَةِ، فَيَرْضَى بِمَا فِيهِ مِنْ حُلُوٍّ وَمُرٍّ، وَخَيْرٍ وَشَرٍّ، عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى

¹⁷ [الشورى : 30]¹⁸ [آل عمران : 165]

مُرَّه وَأَنْ يَشْكُرَ عَلَى خَيْرِهِ، حَتَّى يَكُونَ رَاضِيًا عَنْ رَبِّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾¹⁹ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ لَمْ يَقُلْ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَكْثَرُ وَلَا أَعْظَمُ وَلَا أَوْفَرُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ مِنْكَ شَيْئًا يَنْبَغِي أَنْ تُعَوَّلَ عَلَيْهِ، وَأَنْ تَلْتَفِتَ إِلَيْهِ، وَأَنْ تَحْرِصَ عَلَى أَنْ يَكُونَ مُسْتَحْضَرًا بِإِزَاءِ عَيْنِ بَصِيرَتِكَ مَهْمَا تَوَجَّهْتَ وَأَنْتَى سَلَكَتِ؛ يُرِيدُ مِنْكَ الْإِخْلَاصَ وَالتَّوْحِيدَ وَالْإِنَابَةَ وَالْخُشُوعَ بِصَرْفِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَبَلِّغُوا كُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾²⁰، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ"، فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي طَبَقَاتِ الْخَيْرِ وَمَعَارِجِ السُّلُوكِ صَعُودًا إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِرِضَاهُ عَنْ رَبِّهِ فِيمَا قَضَاهُ رَبُّهُ وَقَدَّرَهُ، فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَمَامَ مُزَعِجَاتِ الْحَيَاةِ، وَمُلِمَّاتِ صُرُوفِ النَّوَازِلِ عَلَى الْآيَامِ وَاللَّيَالِي أَنْ يَصْبِرَ وَأَنْ يُصَابِرَ وَأَنْ يَتَلَقَّى ذَلِكَ بِالرِّضَا عَمَّا قَدَّرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَقَضَى، وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَّقَ بِالْفَرَجِ فَإِنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- ابْتَلَى بِالْمَصَائِبِ وَمَنْ ابْتَلَى بِالْمَصَائِبِ فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يُفَرِّجَهَا وَأَنْ يَكْشِفَ الضَّرَّ وَيَرْفَعَ الْكَرْبَ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ* ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾²¹ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي بَيَانِ حَالِ مَنْ جَزَعَ أَوْ أَصَابَتْهُ لُوثَةٌ بِتَطَّلُعِ لَدُنْيَا فَلَمْ يَرْضَ عَنْ وَاقِعِهِ مَعَ أَنَّهُ كَانَ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ هَذَا الْوَاقِعِ بِمَا أَسْلَفَ وَقَدَّمَ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ اتَّفَقُوا إِلَى هَذَا الْمَعْنَى وَحَرَّرُوهُ لَأَسْتَقَامَتْ أَقْدَامُهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ أُمَّةٌ دَعْوَةٌ تَدْعُو الْعَالَمِينَ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَمْ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْعِبَادَةِ وَهِيَ مُعْرِضَةٌ عَنْهَا، لَنْ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ وَهِيَ مُعَيِّبَةٌ عَنْهُمَا، إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ هِيَ الْأُمَّةُ الْخَاتِمَةُ وَهِيَ الْأُمَّةُ الْمَرْحُومَةُ وَلَا يُدْرَى أَوَّلُهَا خَيْرٌ أَمْ آخِرُهَا كَالْغَيْثِ لَا يُدْرَى آخِرُهُ خَيْرٌ أَمْ أَوَّلُهُ.

19 [الملوك : 2]

20 [الأنبياء : 35]

21 [الشعراء : 80]

قَدْ تَكْفَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِنَبِيِّهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا تُهْلِكَ بِسَنَةِ عَامَّةٍ، وَلَا بِجُوعٍ شَامِلٍ، وَقَحْطٍ عَامٍ، وَجَدْبٍ مُحِيطٍ، فَمَا يَزَالُ ذَلِكَ فِيهَا كَذَلِكَ، وَلَوْ تَكَافَلُ أُنْبَاءُهَا عَلَى امْتِدَادِ رُفْعَتِهَا مَا وُجِدَ فِيهَا مُحْتَاجٌ، وَلَوْ أَمْسَكَ السُّفَهَاءُ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْ أُنْبَاءِهَا فَكَفَّ الْأَغْنِيَاءُ الْأَغْنِيَاءُ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِيمَا لَا يَلِيقُ وَلَا يَجْمُلُ، عَنْ الْإِنْفَاقِ فِيمَا يُعْضِبُ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَعَادُوا بِالْمُؤَاسَاتِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ، مَا وُجِدَ فِي الدُّنْيَا مُحْتَاجٌ مِنْ أُمَّةٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فَإِنَّ الْيَاسَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ أَعْظَمِ الْكِبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ ﴿إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾²²، الْفَرَجُ أَدْنَى إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبِكَ لَوْ فُتِحَتْ عَيْنُ بَصِيرَتِكَ فَاُبْصَرْتَ مَا يُقَدِّرُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي الْحَيَاةِ مِنْ صُرُوفِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَلَا يَأْتِي مِنْهُ إِلَّا الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

مَنْ أَقْدَمَ عَلَى قَتْلِ نَفْسِهِ فَقَدْ اعْتَدَى عَلَى حَقِّ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَاسْتَعْجَلَ مَا لَيْسَ لَهُ أَنْ يُعْجَلَ بِهِ، وَارْتَكَبَ بَابًا عَظِيمًا مِنَ الْإِثْمِ، وَاقْتَرَفَ كَبِيرَةً عَظِيمَةً مِنَ الْكِبَائِرِ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ. عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "كَانَ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ فَجَزَعٌ فَأَخَذَ السَّكِينُ فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَا الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَادِرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ حَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ." وَالْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ- قَالَ: شَهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ فَقَالَ يَعْنِي لِرَجُلٍ مِمَّنْ يُدْعَى بِالْإِسْلَامِ قَالَ النَّبِيُّ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلَمَّا حَضَرْنَا الْقِتَالَ قَاتَلَ الرَّجُلُ قِتَالًا شَدِيدًا فَأَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجُلُ الَّذِي قُلْتَ لَهُ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ إِنَّهُ قَاتَلَ الْيَوْمَ قِتَالًا شَدِيدًا وَقَدْ مَاتَ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِلَى النَّارِ. فَكَادَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَرْتَابَ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ قِيلَ إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ وَلَكِنْ بِهِ جِرَاحٌ شَدِيدٌ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى الْجِرَاحِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ أَمَرَ بِلَا فَنَادَى فِي النَّاسِ إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ

الْجَنَّةُ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ. هَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- مَا نَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ الصَّلَاةَ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى الْعَالِ وَقَاتَلَ نَفْسَهُ فَلَمْ يُصَلِّيْ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. فَنَسَأُ اللَّهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ أَنْ يُدْرِكَ أَبْنَاءَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالسَّكِينَةِ الشَّامِلَةِ، وَالرَّحْمَةِ الْعَامَّةِ، وَأَنْ يَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَأَنْ يُسَدِّدَ أَقْدَامَهُمْ، وَأَنْ يُؤَلِّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ حُكَامًا وَمَحْكُومِينَ لِإِقَامَةِ شَرْعِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَقْدَرُ الْقَادِرِينَ وَهُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

الْخُطْبَةُ الثَّانِيَّةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

أَمَّا بَعْدُ

فَقَدْ قَالَ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾²³ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ بِالْبَقْعِ كَمَا تَفْعَلُهُ جَهْلَةُ الْهِنْدِ أَوْ بِالْقَاءِ النَّفْسِ إِلَى الْهَلَكَةِ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا وَرَدَ صَحِيحًا أَنَّ عَمَرَ بْنَ الْعَاصِ تَأَوَّلَهُ فِي التَّيْمِ لَخَوْفِ الْبَرْدِ فَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بَارْتِكَابِ مَا يُؤَدِّي إِلَى قَتْلِهَا، وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالنَّفْسِ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ دِينِهِمْ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أَيَّ أَمْرٍ بِمَا أَمَرَ وَنَهَى عَمَّا نَهَى لِفَرْطِ رَحْمَتِهِ بِكُمْ. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَيَّ لَا يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا لِأَنَّكُمْ أَهْلُ دِينٍ وَاحِدٍ فَاتُّمَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةً هَذَا قَوْلُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُمَا- . وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّ هَذَا نَهْيٌ عَنْ قَتْلِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا أَنَّ عَمَرَ بْنَ

العاص - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: "اِحْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ فَأَشْفَقْتُ أَنْ أَغْتَسِلَ فَأَهْلِكَ فَنِيَمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي الصُّبْحَ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا عَمْرُ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟" الْمَاءُ حَاضِرٌ وَهُوَ عَلَيْهِ قَادِرٌ وَلَكِنَّهُ خَشِيَ الْمَرَضَ أَوْ الْمَوْتَ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يُسَخِّنُ بِهِ الْمَاءَ فَنِيَمَ، وَالْمَاءُ حَاضِرٌ وَهُوَ عَلَيْهِ قَادِرٌ وَصَلَّى بِهِمْ إِمَامًا. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا عَمْرُ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟ قَالَ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي مَنَعَنِي مِنَ الْإِغْتِسَالِ (فَأَشْفَقْتُ أَنْ أَغْتَسِلَ فَأَهْلِكَ) فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ وَقُلْتُ - أَيْ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَهُ بِالَّذِي مَنَعَهُ مِنَ الْإِغْتِسَالِ - وَقُلْتُ إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ²⁴ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، هَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَانْفَرَدَ بِهِ. وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ دَلَّ عَلَى أَنَّ عَمْرًا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - تَأَوَّلَ هَذِهِ الْآيَةَ هَلَاكَ نَفْسِهِ لَا نَفْسٍ غَيْرِهِ وَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. وَقَوْلُ رَبَّنَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ قَالَ عَطَاءٌ ﴿ذَلِكَ﴾ إِيضًا إِلَى الْقَتْلِ وَعَلَّلَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ أَقْرَبُ مَذْكُورٌ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ²⁵ فَالْإِشَارَةُ هَهُنَا عَلَى قَوْلِ عَطَاءٍ إِلَى الْقَتْلِ فَهُوَ أَقْرَبُ مَذْكُورٍ كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يَقُولُ: الْإِشَارَةُ تَعُودُ إِلَى كُلِّ مَا نَهَى عَنْهُ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، وَقَالَ قَوْمٌ الْوَعِيدُ رَاجِعٌ إِلَى أَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ وَقَتْلِ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ²⁶ قَالُوا إِنَّ الْإِشَارَةَ رَاجِعَةٌ إِلَى هَذَيْنِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ مَعْنَى الْعُدْوَانِ أَيْ أَنْ يَعْدُوَ أَمْرُ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ ²⁷ الْعُدْوَانُ أَنْ تَتَجَاوَزَ الْحَدَّ وَالظُّلْمُ أَنْ تَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ²⁸ أَيْ إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِيقَاعِ مَا تَوَعَّدَ بِهِ مِنْ إِدْخَالِ النَّارِ نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

²⁴ [النساء : 29]²⁵ [النساء : 29، 30]²⁶ [النساء : 29]²⁷ [النساء : 30]²⁸ [النساء : 30]

قَتَلَ النَّفْسَ عَظِيمَ بَلْ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهُ كُفْرٌ وَالصَّوَابُ أَنَّ هُنَالِكَ أَقْوَالًا: فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ -أَيِ مَنْ رَمَى نَفْسَهُ مِنَ الْجَبَلِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ فَهَلَكَ- مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهَا خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا." يَتَوَجَّأُ بِهَا يَضْرِبُ بِهَا نَفْسَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا. قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا فِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

- أَحَدُهَا أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مُسْتَحِلًّا مَعَ عِلْمِهِ بِالْتَّحْرِيمِ فَهَذَا كَافِرٌ وَهَذِهِ عُقُوبَتُهُ.
- وَثَانِيهَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْخُلُودِ طُولُ الْمُدَّةِ وَالْإِقَامَةُ الْمُتَطَوِّلَةُ لَا حَقِيقَةُ الدَّوَامِ.
- وَثَالِثُهَا أَنَّ هَذَا جَزَاءُهُ وَلَكِنَّ تَكْرُمَ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- قَدْ وَقَعَ فَأَحْبَرَ أَنَّهُ لَا يَخْلُدُ فِي النَّارِ مَنْ مَاتَ مُسْلِمًا.

يَكْفِي أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ مُتَنَازِعًا فِيهِ هَلْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ أَبَدَ الْآبِدِينَ وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ أَوْ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ بِرَحْمَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَمْ هَذَا كُلُّهُ؟ إِنَّ الْأَمْرَ لِأَهْوَنَ مِنْ هَذَا جَمِيعَهُ، الْمَوْتُ يَأْتِي بِقَدَرِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عِنْدَمَا يَأْذَنَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِوُقُوعِهِ، وَكُنْ فِي الْحَيَاةِ مُحْسِنًا وَلَا عَلَيْكَ، أَدِّي مَا عَلَيْكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَلَوْ أَنَّكَ أَخَذْتَ بِالذِّكْرِ لَانْشَرَخَ الصَّدْرُ وَاتَّسَعَ أَفْقُ الرُّوحِ ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾²⁹ لَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ أَقْبَلَ عَلَى رَبِّهِ وَأَنَابَ إِلَى مَوْلَاهُ وَانْطَرَحَ بِأَسْبَابِ اسْتِجْلَابِ رَحِمَاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى عَتَبَاتِ الاسْتِجْلَابِ لِلرَّحِمَاتِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ لَعَاشَ فِي جَنَّةٍ مُعْجَلَةً، الْحَدِيثُ الَّذِي مَرَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَهُوَ أَيْضًا عِنْدَ أَبِي دَاوُودَ وَفِيهِ "وَمَنْ حَسَا سُمًّا فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ" وَهَذَا صَحِيحٌ أَيْضًا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **"الَّذِي يَخْنُقُ نَفْسَهُ -الَّذِي يُشْنِقُ نَفْسَهُ- النَّص: "الَّذِي يَخْنُقُ نَفْسَهُ يَخْنُقُهَا فِي النَّارِ، وَالَّذِي يَطْعَنُ نَفْسَهُ يَطْعَنُ نَفْسَهُ فِي النَّارِ، وَالَّذِي يَقْتَحِمُ يَقْتَحِمُ فِي النَّارِ". فَمَنْ أَشْعَلَ النَّارَ فِي نَفْسِهِ فَالنَّارُ مُشْعَلَةٌ فِيهِ بِفِعْلِهِ فِي النَّارِ وَبِئْسَ الْقَرَارُ، وَالَّذِي يَقْتَحِمُ يَقْتَحِمُ فِي النَّارِ. هَذَا الْحَدِيثُ وَالَّذِي قَبْلَهُ فِيهِ أَنَّ مَنْ تَعَجَّلَ فَإِنَّهُ يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ مَا يُعَذِّبُ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ فِي النَّارِ وَبِئْسَ الْقَرَارُ نَسَأُ اللَّهُ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ. عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ: "حَدَّثَنَا جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ فَمَا نَسِينَا مِنْهُ حَدِيثًا وَمَا نَخَافُ أَنْ يَكُونَ جُنْدُبُ كَذَبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. "وَالْحَسَنُ إِمَامٌ وَلَكِنَّهُ مُدْلِسٌ فَإِذَا صَرَّحَ بِالتَّحْدِيثِ فَذَاكَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- قَالَ: "حَدَّثَنَا جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ. "وَهُوَ يُؤَكِّدُ عَلَى ثَبَاتِ الْمَحْفُوظِ فِي ذَاكِرَتِهِ "فَمَا نَسِينَا مِنْهُ حَدِيثًا وَمَا نَخَافُ أَنْ يَكُونَ جُنْدُبُ كَذَبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "كَانَ بَرَجُلٍ جَرَّاحٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَدَرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ -بَدَرْنِي أَي لَمْ يَصْبِرْ حَتَّى تُقْبِضَ رُوحُهُ حَتَّى أَنْفَهُ- بَدَرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ" وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: "كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ فِيهِ جُرْحٌ فَجَزَعَ فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ فَمَا رَقَا الدَّمُ حَتَّى مَاتَ -فَمَا جَفَّ وَسَكَنَ جَرَيَانُ الدَّمِ حَتَّى مَاتَ الرَّجُلُ- فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَادَرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ". الْحَدِيثُ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَلَفْظُهُ عِنْدَ مُسْلِمٍ قَالَ: "إِنَّ رَجُلًا كَانَ مِنْكُمْ كَانَ قَبْلَكُمْ خَرَجَتْ بَوَجهِهِ قَرْحَةٌ فَلَمَّا آذَنَهُ الْقَرْحَةُ انْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ -وَالْكِنَانَةُ جُعْبَةُ السِّهَامِ- انْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ فَنَكَأَهَا -أَي نَخَسَ الْقَرْحَةَ وَفَجَّرَهَا- فَلَمْ يَرَقَا الدَّمُ -لَمْ يَجِفَّ وَلَمْ يَسْكُنْ جَرَيَانُهُ- حَتَّى مَاتَ الرَّجُلُ قَالَ رَبُّكُمْ قَدْ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ". وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سُمَرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- "أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ بِهِ جَرَاخَةٌ فَأَتَى قَرْنًا لَهُ -وَالْقَرْنُ جُعْبَةُ السِّهَامِ- فَأَخَذَ مِشْقَصًا -وَهُوَ سَهْمٌ فِيهِ نَصْلٌ عَرِيضٌ كَالسِّكِّينِ- فَأَخَذَ مِشْقَصًا فَذَبَحَ بِهِ نَفْسَهُ فَلَمْ يُصَلِّيْ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ" رَوَاهُ بْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَهُوَ صَحِيحٌ لِغَيْرِهِ. وَعَنْ أَبِي قِلَابَةَ أَنَّ ثَابِتَ بْنَ الضَّحَّاكِ أَخْبَرَهُ -رَضِيَ اللَّهُ**

عَنْهُ - أَنَّهُ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ كَاذِبًا مُتَعَمِّدًا فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عَذِبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ عَلَى رَجُلٍ نَذْرٌ فِيمَا لَا يَمْلِكُ، وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ رَمَى مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ ذَبَحَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عَذِبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، هَذَا فِي الصَّحِيحَيْنِ وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ بَلَفَظَ "لَيْسَ عَلَى الْمَرْءِ نَذْرٌ فِيمَا لَا يَمْلِكُ، وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ قَذَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عَذِبَهُ اللَّهُ بِمَا قَتَلَ بِهِ نَفْسَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اتَّقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَافْتَتَلُوا فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى عَسْكَرِهِ وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ لَا يَدْعُ لَهُمْ شَاذَةً وَلَا فَاذَةً - وَالشَّاذَّةُ وَالْفَاذَةُ مَا انفردَ عَنِ الْجَمَاعَةِ - لَا يَدْعُ لَهُمْ شَاذَةً وَلَا فَاذَةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالُوا مَا أَجْزَأَنَا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَقَالُوا فَأَيْنَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِنْ كَانَ هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟" لَا يُعْجِبَنَّكَ عَمَلٌ عَامِلٌ حَتَّى تَنْظُرَ بِمَا يُخْتَمُ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِالْخَوَاتِيمِ نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُحْسِنَ لَنَا الْخِتَامَ أَجْمَعِينَ، "قَالُوا أَيْنَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِنْ كَانَ هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ أَنَا صَاحِبُهُ أَبَدًا، قَالَ فَخَرَجَ مَعَهُ فَكُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ فَجَرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتُ فَوَضَعَ سَيْفَهُ بِالْأَرْضِ وَذُبَابُهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ - ذُبَابُ السَّيْفِ طَرَفُهُ الْأَسْفَلُ - ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ مُرَاقِبًا لِهَذَا، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ - وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَلَكِنْ لِهَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي رَأَاهَا بَعِثَنِي رَسُولُهُ - قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ؟ أَلَمْ تَشْهَدْ قَبْلُ؟ - بَلَى قَدْ شَهِدَ - قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنَا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ فَقُلْتُ أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ حَتَّى جَرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتُ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الْأَرْضِ

وَذُبَابُهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي مَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ.** " وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

اعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ اللَّوْمَ كَالطُّيُورِ الْقَرِيبَةِ مِنْ أَعْشَاشِهَا سَرْعَانَ مَا تَعُودُ إِلَى أَعْشَاشِهَا، وَأَنْتَ مَهْمَا لُمْتَ مُذْنِبًا عَادَ بِاللَّوْمِ وَالتَّشْرِيبِ عَلَيْكَ، وَحَمَلَ الْمَلَامَةَ عَلَيْكَ، وَاسْتَنْصَلَ هُوَ مِنْ مُوْجِبَاتِ اللَّوْمِ اسْتِنصَالًا كَأَنَّهُ فِي بَرَاءَةٍ تَامَّةٍ، وَهُوَ أَحْمَقُ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، كَالرَّجُلِ الْقَاصِّ الَّذِي جَلَسَ يَقْصُّ فَقَالَ: إِنَّ الذِّئْبَ الَّذِي أَكَلَ ابْنَ يَعْقُوبَ كَانَ اسْمُهُ كَذَا، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْ عُرْضِ الْمَجْلِسِ: وَلَكِنَّ الذِّئْبَ لَمْ يَأْكُلْ يُوسُفَ. قَالَ: أَوَّهَ قَدْ نَسِيتُ، هَذَا اسْمُ الذِّئْبِ الَّذِي لَمْ يَأْكُلْ يُوسُفَ. فَمَهْمَا حَمَلْتَ بِاللَّوْمِ عَلَى غَيْرِكَ عَادَ اللَّوْمُ إِلَيْكَ. وَالْمُعَالَاةُ فِي مُعَالَجَةِ انْحِرَافِ ثَوْلَدٍ انْحِرَافًا آخَرَ لَا مَحَالَةَ، وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ مُسْتَقَرَّةٌ حِكْمَةٌ وَحُكْمًا، الْمُعَالَاةُ فِي مُعَالَجَةِ انْحِرَافِ ثَوْلَدٍ انْحِرَافًا آخَرَ. إِنَّ التَّمَكِينَ فِي الْأَرْضِ وَالِاسْتِعْلَاءَ بِالْإِيمَانِ فِيهَا، وَإِنَّ الْوِلَايَةَ عَلَيْهَا لَهَا أَسْبَابُهَا الَّتِي لَا تُتَحَصَّلُ إِلَّا بِهَا، وَلَا يُنْتَهَى إِلَى غَايَتِهَا إِلَّا بِسُلُوكِ سَبِيلِهَا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَمَهْمَا حَاوَلَ الْمَرْءُ أَنْ يَسْلُكَ سِوَى هَذِهِ السَّبِيلِ فَإِنَّهُ خَبِطُ خَبْطِ الْعَمِيَاءِ فِي لَيْلٍ دَاجٍ، وَإِنَّهُ لَا خِذْ كَحَاطِبِ اللَّيْلِ بِمَا يَلْقَاهُ، وَرُبَّمَا أَخَذَ مَا آذَاهُ، فَيَأْخُذُ حَيَّةً يَحْسِبُهَا حَطْبَةً وَقَدْ أَعْمَى اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - نُورَ بَصِيرَتِهِ. فَلْتَسَلِّكَ إِلَى الْغَايَاتِ الصَّحِيحَةِ الْوَسَائِلُ الصَّحِيحَةُ الْمَشْرُوعَةُ، فَإِنَّهُ لَا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهَا إِلَّا بِذَلِكَ. وَلْيَنْظُرْ فِيمَا عَلَيْهِ حَالُ الْأُمَّةِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَنْظُرُونَ النَّظْرَةَ الْأُولَى، وَالنَّظْرَةَ الْأُولَى حَمَقَاءُ، النَّظْرَةُ الْأُولَى حَمَقَاءُ، فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْظُرَ مَلِيًّا وَأَنْ يُنْعِمَ التَّامَّلَ فِيمَا هُوَ نَاطِرٌ إِلَيْهِ. ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾³⁰. فَفَرَّقَ بَيْنَ النَّظَرِ وَالْبَصَرِ، فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ تَرَاهُ نَاطِرًا غَيْرَ مُبْصِرٍ. فَيَنْبَغِي عَلَى الْإِنْسَانِ أَلَّا يَكُونَ أَحْمَقَ النَّظْرَةِ، وَيَنْبَغِي عَلَيْهِ أَلَّا يَكُونَ أَحَادِي النَّظْرَةِ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَتْ النَّظْرَةُ

الْأُولَى الْحَمَقَاءَ شَرًّا فَلَا شَكَّ أَنَّ النَّظْرَةَ الْأَحَادِيَّةَ شَرُّ مِنْهَا، تَمَامًا كَالَّذِي يُرَكِّزُ عَلَى الْحَيَّةِ؛ مِنْ تَرْكِيزِهِ عَلَى الْحَيَّةِ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى الْعَقْرَبِ الَّتِي تَدْبُّ إِلَيْهِ. فَهُوَ مِنْ شِدَّةِ تَرْكِيزِهِ بِنَظْرَةِ أُحَادِيَّةٍ عَلَى مَا يُؤْذِيهِ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى مَا يَتَحَقَّقُ مِنْهُ الْأَذَى وَالضَّرُّ. فَيَنْبَغِي عَلَى الْمَرْءِ أَنْ لَا يَكُونَ أُحَادِيَّ النَّظْرَةِ وَأَنْ لَا يَسْتَعْجِلَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَفْتَحُ لِلْعَبْدِ وَإِنْ كَانَ صَالِحًا سَبْعِينَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ لِيَتْلَفَ مِنْهَا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الشَّرِّ. إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَأْتِي الْمَرْءَ قَصْدًا، وَإِذَا أَتَى قَصْدًا فَصَدَّهُ الْعَبْدُ احْتَالَ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا أَتَاهُ مِنْ بَابٍ خَيْرٍ يُفْضِي إِلَى شَرٍّ، وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ وَطَالِبٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُدْرِكَه، فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نُحْكِمَ النَّظَرَ فِي هَذَا الْوَاقِعِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ فِي بَلَدِنَا هَذَا وَهُوَ بَلَدٌ إِسْلَامِيٌّ، فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نُحَافِظَ عَلَى مَكَاسِبِ الْإِسْلَامِ فِيهِ. وَلَنَعْلَمَ أَنَّنَا لَنْ نُفِيدَ شَيْئًا وَلَنْ نَتَحَصَّلَ عَلَى شَيْءٍ، بَلَى سَتَتَحَصَّلُ وَلَكِنْ عَلَى مِلءِ قَبْضَةٍ مِنْ ذُبَابٍ إِذَا تَعَجَّلْنَا الْأُمُورَ فَإِنَّ الْأَعْدَاءَ قَدْ كَفَوْا أَنْفُسَهُمْ بِنَا مَوْوَنَةً غَزَوْنَا وَالْعُدُوَانَ عَلَيْنَا، وَتَخَالَفَتِ الْوُجُهَاتُ وَتَضَارَبَتِ السُّبُلُ وَصَارَ بِأُسْنَا بَيْنَنَا كَمَا أَخْبَرَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. وَالْمُتَرَبِّصُونَ بِإِسْلَامِ هَذَا الْبَلَدِ وَإِسْلَامِيَّتِهِ كَثِيرُونَ جِدًّا يُرِيدُونَ أَنْ يَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ وَأَنْ لَا يَعُودَ إِسْلَامِيًّا كَمَا هُوَ، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحْفَظَ الْإِسْلَامَ عَلَيْهِ وَأَنْ يَحْفَظَهُ بِالْإِسْلَامِ وَجَمِيعَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَبُلْدَانِهِمْ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ لَا نَتَعَجَّلَ، وَأَنْتَ لَنْ تُفِيدَ شَيْئًا إِذَا دَخَلْتَ تِجَارَةً رِبَحَتْ فِيهَا دِرْهَمَيْنِ وَخَسِرَتْ فِيهَا رَأْسَ الْمَالِ، فَآيُّ فَائِدَةٍ هَذِهِ، بَلْ إِنَّكَ لَنْ تُفِيدَ شَيْئًا إِذَا دَخَلْتَ تِجَارَةً تَرْبِحُ مِنْهَا دِرْهَمَيْنِ وَتَخْسِرُ فِيهَا مِائَتَيْنِ. كُلُّ عَاقِلٍ يَكْفُ يَدُهُ عَنْ صَفْقَةٍ كَهَذِهِ وَيَقْبِضُ نَفْسَهُ عَنِ التَّطَلُّعِ إِلَى مِثْلِهَا، وَيَأْخُذُ بِالْوَسَائِلِ الْمَشْرُوعَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا رَبُّنَا فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَلَنَعْلَمَ أَنَّهُ مَهْمَا أَصَابَنَا مِنْ شَيْءٍ فَبِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِينَا وَيَعْفُو رَبُّنَا عَنْ كَثِيرٍ وَكَثِيرٍ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا الْبَشِيرُ النَّذِيرُ أَنَّهُ لَنْ يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ عَامٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى نَلْقَاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْحَوْضِ، وَهَذَا مِنَ الْعَامِّ الْمَخْصُوصِ فَإِنَّهُ بَيْنَ يَدَيِ نُزُولِ الْمَسِيحِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ خِلَافَةً رَاشِدَةً كَمَا اسْتَظْهَرَ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِالْخِلَافَةِ عَلَى مِنْهَاجِ النَّبَوَّةِ ثُمَّ سَكَتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

وَإِذَا فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا عِبَادَ اللَّهِ أَنْ نَجْتَهِدَ فِي الْأَخْذِ بِالسَّبَابِ الشَّرْعِيَّةِ، وَأَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُ مَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ عَامًّا إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، وَعَلَيْنَا أَنْ نَحْمِلَ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْمَلَامَةِ أَوَّلًا فَإِنَّ السَّلَفَ كَانُوا كَذَلِكَ. لَمَّا فُتِحَتْ قُبُورُ جُلَسَاءِ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَاحِيَةً يَبْكِي، فَقِيلَ لَهُ أَتَبْكِي فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فِيهِ الْمُسْلِمِينَ وَنَصَرَ الْإِسْلَامَ فَقَالَ لَهُ: يَا جُبَيْرَ بَيْنَمَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ لَهُمُ الْمُلْكُ إِذْ تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ فَصَيَّرَهُمُ اللَّهُ إِلَى مَا تَرَى؛ اعْتَدِي عَلَى الْأَعْرَاضِ وَانْتَهَكْتَ، وَشَرِدْتَ الْحَرَائِرُ كُلَّ مُشَرِّدٍ، وَأَرِيقَتِ الدِّمَاءَ أَنْهَارًا، وَقُطِعَتِ السُّبُلُ، وَنُهَبَتِ الدُّورُ، وَسُلِبَتِ الْأَمْوَالُ، وَلَمْ يُرْفَعْ الْأَذَانُ، وَلَمْ يُعْبَدْ رَبُّنَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فَأَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ؟ يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ". قَالَ قَائِلٌ وَلَكِنْ كَانَ الْحَجَّاجُ وَمَا لَقِيتَ بَنُو أُمَيَّةَ رَبَّهَا فِي صَحَائِفِ السِّيَّاتِ بِمِثْلِهِ، كَانَ الْحَجَّاجُ وَكَانَ ظُلُومًا جَهُولًا، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَكَيْفَ يُوجِّهُ الْحَدِيثُ؟ قَالَ الْحَسَنُ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: "لَأَبْدَ لِلنَّاسِ أَنْ يَتَنَفَّسُوا فَيَجْعَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَهُمْ مُتَنَفِّسًا". اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ لِلْفُقَهَاءِ لَمَّا أَمَرُوهُ فِيمَا أَمَرُوهُ بِشَأْنِ الْوَأَثِقِ، وَكَانَ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْكُفْرِ وَإِنْ كَانَ جَاهِلًا، فَيَقْرَرُونَ عَقِيدَةَ الْجَهْمِيَّةِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ وَكَفْيِ الصِّفَاتِ عَنْ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ، وَتَعْطِيلِهِ عَنْ كَمَالَاتِهِ سُبْحَانَهُ سُبْحَانَهُ. فَأَمَرُوهُ فِيمَا أَمَرُوهُ مِنْ شَأْنِهِ فَأَخَذَ يُخَفِّضُ مِنْ ثَائِرَتِهِمْ وَيُسَكِّنُ مِنْ ثَوَرَتِهِمْ: اصْبِرُوا أَلَمْ تَرَوْا مَا كَانَ مِنَ الْفِتْنَةِ. قَالُوا: وَأَيُّ شَيْءٍ هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْفِتْنَةِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا. لَا تَكُونَنَّ عَائِشِينَ بِمَنْطِقِ الذُّبَابِ؛ إِذَا رَأَى الْعَسَلُ قَالَ مَنْ يُوصِلُنِي إِلَيْهِ وَلَهُ دِرْهَمَانُ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَيْهِ فَوَقَعَ فِيهِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ مِنْهُ مَخْرَجًا قَالَ مَنْ يُخْرِجُنِي وَلَهُ أَرْبَعَا. لَقَدْ كُنْتُ بِمَنْجَى قَبْلُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي ذَلِكَ وَعَاقِبَةٍ. قَالَ: لَا إِنَّمَا أَعْنِي الْفِتْنَةَ الْعَامَّةَ؛ قُطِعَتِ السُّبُلُ، وَنُهَبَتِ الدُّورُ وَأُهْرِيقَتِ الدِّمَاءُ، وَهَذَا يُؤَثِّرُ عَلَى الدَّعْوَةِ وَالِدِّينِ، عَلَى الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَلَنْ يَخْسَرَ إِلَّا الْمُسْلِمُونَ، سَيَسْتَفِيدُ الشُّيُوعِيُّونَ وَالْوَجُودِيُّونَ وَالْعُلَمَائِيُّونَ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ الْبَاطِلَةِ وَالنَّحْلِ الْفَاسِدَةِ وَلَنْ

يَخْسِرَ إِلَّا الْمُسْلِمُونَ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ مُسْلِمٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ عَقْلاً وَلْيَتَأَمَّلْ فِي هَذَا وَلْيَأْخُذْ بِقَوْلِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: اصْبِرُوا حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ أَوْ يُسْتَرَا حَ مِنْ فَاجِرٍ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانِ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ وَإِلَيْهِ تَعُودُ الْأُمُورُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. اللَّهُمَّ سَلِّمْ وَطَنَنَا وَجَمِيعَ أَوْطَانِ الْمُسْلِمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ وَيَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ وَيَا ذَا الْقُوَّةِ الْمَتِينِ، سَلِّمْ وَطَنَنَا وَجَمِيعَ أَوْطَانِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وَاحْفَظْ عَلَى هَذَا الْوَطَنِ وَعَلَى جَمِيعِ أَوْطَانِ الْمُسْلِمِينَ مِتَّتِكَ بِالْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَاتَّبَاعِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ وَيَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ وَيَا ذَا الْقُوَّةِ الْمَتِينِ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلِّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.